

كانت رموزه الاساسية تتمثل بالحكومة وبالسلطة العسكرية تضاف اليهما احكام الطوارئ . ويقابل هذه الاشياء كلها مصادرة الاملاك ، والقرى . والشعور السائد هو ان هذا القهر لا مفر منه . فليس من الممكن اخضاع الحكومة ، ولا الحد من المصادرة ، ولا بعث القرى وتحويلها الى بؤر للرد . ان هذه الافكار لا ترد حتى الى ذهن الشباب العربي « المتطرف » من جماعة الارض . ولكنهم ، على العكس من ذلك ، واعون تماما للتناقضات المنطقية التي تقع فيها السلطات الاسرائيلية . ان هذه التناقضات المنسوبة للمعتدين تجعل من القيود اشياء لا مبرر لها قطعا ، ان لم نقل انها غير عقلانية او على اقل تقدير ميكانيكية . ويمكننا ان نذكر على سبيل المثال ان السلطة العسكرية التي خلقت من اجل تأمين الامن ومن اجل ممارسة الشر كذلك ، ينتهي بها الامر الى خلق اللامثابته . كما ان القمع الذي يستهدف اخضاع العرب في اسرائيل يحثهم ، في نفس الوقت ، على الثورة . كذلك ، فان ازالة قوانين الطوارئ البشعة لم تكن سارية المفعول بالنسبة للعرب المقيمين في اسرائيل .

مع هذا فقد تولدت عناصر الرد الفلسطيني من الشعور بالقهر . وكان هذا الرد يتطلع على المدى القصير الى الوقوف في وجه آلة القمع ، والمطالبة بحقوق العرب في اسرائيل ، مهما كان الثمن ، حتى لو اضطر الى اللجوء للمقاومة ( السلبية كما يبدو ) . كل ذلك باسم النصوص الدستورية للدولة وباسم ضمانات الامم المتحدة . اما على المدى الطويل بعد ذلك ، فان الرد الفلسطيني يرتكز على الاوتوبيا القائلة بالتقسيم وبالتعاون العربي - اليهودي من اجل اقامة امة عربية واحدة واشتراكية . ان هذه الاوتوبيا تبدو مع ذلك ، وكأنها أكثر واقعية من مرحلة المقاومة . ذلك ان فرضية التعايش داخل اسرائيل فرضية منبوذة . كما ان فرضية ازالة دولة اسرائيل بشكلها الراهن لم يجر حتى طرحها . تبقى هناك فكرة الاقتسام بين العرب واليهود الذي يؤدي فيما بعد الى تعاون على مستوى المنطقة بأسرها تحت راية الاشتراكية العربية الموحدة . . .

ان هذا المشروع يشتمل على تناقضات كما نذكر ، ولكنها جميعها من النوع « الجدلي » . فالامم المتحدة تحمي قانونيا العرب في اسرائيل ضد مصادرة املاكهم ولكنها ، رغم كل نداءاتهم ، لا تتدخل لمصلحتهم . ان هذا التراخي من جانب الامم المتحدة لا يؤدي الا الى زيادة فشل مرحلة المقاومة والمطالبة . اما باقي التناقضات فانها تتصل بصلب المشروع ذاته : التوافق ( الاوتوبي ) وعدم التوافق ( الراهن ) بين الامة العربية والدولة الاسرائيلية - التقسيم والتعاون في آن واحد - التقسيم ومع هذا اللاشوفينية - اللاشوفينية ومع ذلك القومية العربية ( فقط ) - التقسيم ( الاوتوبي ) وفي نهاية الامر المطالبة ( الراهنة ) بالارض العربية . ان هذه التناقضات تشير الى الاتجاه الذي يسير فيه تطور العلاقات بين الخصمين وصولا حتى النهاية الاوتوبية « الحقيقية » .

انه من الصعوبة بمكان التحدث عن ايدولوجيا سياسية يعني عن نظام للقيم وعن نظرة شاملة للعالم السياسي على كافة مستوياته . من الافضل ان نتحدث عن « اوتوبيا » سياسية يعني عن مشروع سياسي صادق وضارب الجذور الى حد كبير في « الاسطورة الفلسطينية » التي يحتفل بها الشعب العربي في اسرائيل . ان اوتوبيا الارض ليست مستوحاة في الواقع من مثالية او ايدولوجية « فوقية » ، ولكنها مستوحاة من التجربة القاسية امام شبكة من القيود . ان الموت هو مؤكد . ومع ذلك فان بذورا « اوتوبية » للبعث تنمو معه وتتخذ لنفسها شكلا . ويرد الى خاطرنا هنا شعر محمود درويش :

« الموت ، الحياة ، الطريق واحدة »

من المؤكد ان التقرير الذي رفعته « الارض » يبدو اكثر تواضعا من القصيدة في مشروعه ، واكثر منها بكثير شكوى من الوضع الراهن . لكن الذي ألمانا هو تقرير موجه الى الرأي العام العالمي وليس الى الشعب العربي في اسرائيل . انه كذلك دفتر من الشكاوي